تفسير سورة «الفيل»

وهي مكية بإجماع[1]. وهي خمس آيات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: أَلَم تخبَرْ. وقيل: أَلَم تَعْلَم. وقال ابن عباس: أَلَمْ تسمع؟ واللفظُ استفهامٌ، والمعنى تقرير. والخطابُ للنبيِّ ﷺ ولكنَّه عامٌّ، أي: ألم تَرَوْا ما فعلتُ بأَصْحَابِ الفيل، أي: قد رأيتُم ذلك، وعرفتُم موضعَ مِنَّتي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟

و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ «فَعَلَ رَبُّك» لا بـ «ألم تر» [لأن] «كيف» من معنى الاستفهام[2].

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ الفيلُ معروفٌ، والجمعُ أفيالٌ وفُيول، وفِيَلَة. قال ابن السكيت: ولا تَقُلْ أَفْيِلة. وصاحبُه فيَّال. قال سيبويه: يجوزُ أن يكون أصلُ فِيل فُعْلاً، فكُسِر من أَجْلِ الياء، كما قالوا: أبيضُ وبيضٌ. وقال الأخفش: هذا لا يكونُ في الواحد، إنَّما يكون في الجمع. ورجلٌ فِيلُ الرأي، أي: ضعيف الرأي، والجمعُ أفيال. ورجلٌ فالٌ، أي: ضعيفُ الرأي، مخطئُ الفِراسةِ. وقد فال الرأيُ يَفِيلُ فُيولة، وفَيَّل رأيَه تفييلاً، أي: ضعَّفه، فهو فَيِّل الرأي[3].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٣ ، وزاد المسير ٩/ ٢٣١ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وفيه: لأن كيف من حروف الاستفهام. وقال مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٤٤ : ولا يعمل فيه «تر» لأن فيه معنى الاستفهام، ولا يعمل فيه ما قبله.

(٣) الصحاح (فيل)، وقول ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ١٩١ ، وقول سيبويه في الكتاب ٣/ ٥٩٢ .

الثالثة: في قصة أصحابِ الفيل، وذلك أنَّ أبرهةَ بنى القُلَّيْسَ بصنعاء، وهي كنيسةٌ لم يُر مِثلُها في زمانها بشيءٍ من الأرض، وكان نصرانيًّا، ثم كتب إلى النجاشيِّ: إنِّي قد بَنَيْتُ لك أيها الملكُ كنيسةً لم يُبْنَ[1] مثلُها لملِك كان قبلك، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرِف إليها حجَّ العربِ.

فلمَّا تحدَّثت العربُ بكتابِ أبرهةَ ذلك إلى النجاشيِّ، غضب رجلٌ من النَّسَأة[2]، فخرج حتى أتى الكنيسةَ، فقعد فيها ـ أي: أَحْدَثَ ـ ثم خرج فلَحِقَ بأرضه، فأُخْبِر بذلك أبرهةُ، فقال: مَن صنع هذا؟ فقيل: صَنَعه رجلٌ من أهلِ هذا البيت الذي تحجُّ إليه العرب بمكة، لمَّا سمِع قولكَ: أَصْرِفُ إليها حجَّ العرب، غضب، فجاء فقعد فيها، أي: أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهةُ، وحلف ليَسِيرَنَّ إلى البيت حتى يهدِمه، وبعث رجلاً كان عنده إلى بني كِنانةَ يدعوهم إلى حجِّ تلك الكنيسة، فقتَلَتْ بنو كنانةَ ذلك الرجلَ، فزاد أبرهةَ ذلك غضباً وحَنَقًا.

ثم أمر الحبشةَ فتهيَّأتْ وتجهَّزتْ، ثم سار وخرج معه بالفيل. وسمعتْ بذلك العرب، فأَعْظَموه وفَظِعوا به، ورأَوْا جهادَه حقًّا عليهم حين سمعوا أنه يريد هَدْمَ الكعبةِ بيتِ الله الحرام. فخرج إليه رجلٌ من أشرافِ أهلِ اليمنِ وملوكِهم يقال له: ذو نَفْر، فدعا قومه ومَن أجابه مِن سائر العرب إلى حربِ أبرهةَ وجهادِه عن بيت الله الحرام، وما يريد مِن هَدْمِه وإخرابه، فأجابه مَن أجابه إلى ذلك، ثم عَرَضَ له فقاتَلَه، فهُزِم ذو نَفْرٍ وأصحابُه، وأُخِذ له ذو نفرٍ فأُتي به أسيراً، فلمَّا أراد قَتْلَه قال له ذو نَفْر: أيها الملك لا تقتُلْني، فإنَّه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي. فتركه من القتل، وحَبَسه عنده في وَثاق، وكان أبرهةُ رجلاً حليماً.

ثم مضى أبرهةُ على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرضِ خَثْعَمَ

---

(١) في (ظ): لم ير.

(٢) بعدها في سيرة ابن هشام ١/ ٤٣ : أحد بني فقيم بن عدي بن عامر...، والنسأة: الذين كانوا ينسؤون الشهور على العرب في الجاهلية.

عَرَضَ له نُفَيل بن حبيب الخَثْعَمِيُّ في قبيلَتيْ خثعم: شَهرانَ وناهِسٍ، ومَن تَبِعه من قبائل العرب، فقاتَلَه فهزمه أبرهةُ، وأُخِذ له نُفيل أسيراً، فأُتي به، فلمَّا همَّ بقتله قال له نُفَيل: أيها الملك لا تقتلني، فإنِّي دليلُك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم ـ شهران وناهِس ـ بالسمع والطاعة. فخلَّى سبيلَه. وخرج به معه يدلُّه. حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجالٍ من ثَقيف، فقالوا له: أيها الملك، إنَّما نحن عبيدُك، سامعون لك مُطيعون، ليس عندنا لك خلافٌ، وليس بيتُنا هذا البيتَ الذي تريد ـ يعنون اللَّاتَ ـ إنَّما تريدُ البيتَ الذي بمكة، ونحن نبعثُ معك مَن يَدُلُّك عليه. فتجاوَزَ عنهم، وبعثوا معه أبا رِغال، حتى أنزله المغمَّس[1] فلمَّا أنزله به مات أبو رِغال هناك، فَرَجَمت قبرَه العرب، فهو القبرُ الذي يرجمُ الناسُ بالمغمَّس، وفيه يقول الشاعر:

وأرجُمُ قبرَه في كلِّ عامٍ كَرجْمِ الناسِ قبرَ أبي رِغال[2]

فلمَّا نزل أبرهةُ بالمغمَّس، بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكةَ، فساق إليه أموالَ أهلِ تهامةَ من قريش وغيرِهم، وأصاب فيها مئتي بعيرٍ لعبد المطَّلب بن هاشم، وهو يومئذٍ كبيرُ قريشٍ وسيدُها، فهمَّتْ قريشٌ وكنانةُ وهُذَيْلٌ ومَن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقةَ لهم به، فتركوا ذلك.

وبعث أبرهةُ حُناطةَ الحِميريَّ إلى مكة، وقال له: سَلْ عن سيد هذا البلد وشريفِهم، ثم قل له: إنَّ الملك يقول: إنِّي لَمْ آتِ لحربكم، إنَّما جئتُ لهدم هذا البيت، فإنْ لم تَعرضوا لي بحربٍ، فلا حاجةَ لي بدمائكم. فإنْ هو لم يُرِدْ حربي فأُتني به. فلمَّا دخل حُناطةُ مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبدُ المطلب

---

(١) بتشديد الميم وفتحها، وقيل: بكسرها، موقع قرب مكة في طريق الطائف. ينظر معجم البلدان ٥/ ١٦١ ، والروض الأنف ١/ ٦٨ .

(٢) البيت لمسكين الدارمي، كما في الحيوان ٦/ ١٥٧ ، وثمار القلوب لأبي منصور الثعالبي ص١٣٦ .

ابنُ هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: والله ما نريدُ حربَه، وما لنا بذلك منه طاقة[١]، هذا بيتُ الله الحرامُ، وبيتُ خليله إبراهيمَ عليه السلام ـ أو كما قال ـ فإنْ يمنعْه منه فهو حَرمُه وبيتُه، وإن يُخلِّ[٢] بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفعٌ عنه. فقال له حُناطة: فانطلِقْ إليه؛ فإنَّه قد أمرني أنْ آتيَه بك، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعضُ بنيه، حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نَفْر ـ وكان صديقاً له ـ حتى دخل عليه وهو في مَحْبِسه، فقال له: يا ذا نفْر، هل عندك من غَناءٍ فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفْر: وما غَنَاءُ رجلٍ أسيرٍ بيدي ملكٍ، ينتظر أن يقتله غُدُوًّا وعَشِيًّا! ما عندي غَناءٌ في شيءٍ ممَّا نزل بك، إلَّا أنَّ أُنيساً سائسَ الفيلِ صديقٌ لي، فسأرسلُ إليه وأُوصِيه بك، وأُعْظِمُ عليه حقَّكَ، وأسألُه أن يستأذن لك على الملك، فتكلِّمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخيرٍ إنْ قَدَر على ذلك. فقال: حَسْبي. فبعث ذو نفْر إلى أُنَيس فقال له: إنَّ عبد المطلب سيدُ قريش، وصاحبُ عَيْن[٣] مكةَ، يطعمُ الناسَ بالسهل، والوحوشَ في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مئتي بعير، فاسْتَأْذِنْ له عليه، وانْفَعْه عنده بما استطعت. فقال: أَفْعَلُ. فكلَّم أُنيسٌ أبرهةَ، فقال له: أيها الملك، هذا سيدُ قريشٍ ببابك، يستأذن عليك، وهو صاحبُ عَيْن مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال؛ فأْذَنْ له عليك، فليكلِّمْك[٤] في حاجته. قال: فأَذِن له أبرهة.

وكان عبد المطَّلب أَوسمَ الناس وأعظمَهم وأجملَهم، فلمَّا رآه أبرهةُ أَجَلَّه وأَعْظَمَه عن أن يُجلسه تحته، فنزل أبرهةُ عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جَنْبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك[٥]؟ فقال له ذلك التُّرجُمان، فقال:

---

(١) في تفسير الطبري ٢٤/٦٣٨: وما لنا بذلك من طاقة.

(٢) في (ظ): وإن لم يحل.

(٣) في تفسير الطبري: عير، في الموضعين.

(٤) في (د): يكلمك، وفي (م) والسيرة: فيكلمك، والمثبت من باقي النسخ وتفسير الطبري.

(٥) في (د) وتفسير الطبري: ما حاجتك. والمثبت من باقي النسخ والسيرة.

حاجتي أن يردَّ عليَّ الملك مئتي بعيرٍ أصابها لي. فلمَّا قال له ذلك، قال أبرهة لتُرْجُمانه: قل له: لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتُك، ثم قد زهِدْتُ فيك حين كلَّمتني، أتكلِّمني في مئتي بعيرٍ أَصَبْتُها لك، وتتركُ بيتاً هو دينُك ودينُ آبائك، قد جئتُ لهدمه، لا تكلِّمُني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إنِّي أنا ربُّ الإبل، وإنَّ للبيت ربًّا سيمنعُه. قال: ما كان لِيمتنعَ منِّي! قال: أنت وذاك. فردَّ عليه إبلَه.

وانصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرُّزِ في شَعَف الجبال والشِّعاب؛ تخوُّفاً عليهم مَعَرَّةَ الجيش[1]. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلْقةِ بابِ الكعبة، وقام معه نَفَرٌ من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهةَ وجندِه، فقال عبد المطلب وهو آخذٌ بحلقةِ بابِ الكعبة:

لاهُـــمَّ إنَّ الـــعَـــبْـــدَ يَـــمْـــ ـــنـعُ رَحْـلُـه فـامـنـعْ حِـلالَـكْ
لا يَـغْـلِـبَـنَّ صَـلـيـبُـهُـمْ ومِـحـالُـهُـم عَـدْوًا مِـحـالَـكْ
إنْ كـنـتَ تـارِكـهـم وبـلـ ـدتـنـا[2] فـأمـرٌ مـا بـدا لـك[3]

يقول: أي شيء ما بدا لك لم تكن تفعلُه بنا[4]. والحِلال: جمع حِلّ[5]. والمِحال: القوَّة. وقيل: إنَّ عبد المطلب لمَّا أخذ بحلقةِ بابِ الكعبةِ قال:

---

(١) أي: شدته. وقوله: وشعف الجبال، أي: رؤوسها، والشعاب: المواضع الخفية بين الجبال. الإملاء المختصر ١/ ٨٨.

(٢) في النسخ عدا (د): إن يدخلوا البلد الحرام، والمثبت من (د). وجاء في سيرة ابن هشام: إن كنت تاركهم وقبلتنا. وفي السير والمغازي لابن إسحاق ص ٦٢:

إن يـدخـلـوا الـبـلـد الـحـرام غـداً فـأمـر مـا بـدا لـك

(٣) قال ابن هشام: هذا ما صح له منها. ووقع في (د) زيادة: جروا جميع جيوشهم والفيل كي يسبوا عيالك قصدوا حماك بكيدهم عدواً وما رقبوا جلالك. وهذه الزيادة ذكرها ابن الجوزي ٩/ ٢٣٤ باختلاف يسير.

(٤) السير والمغازي ص ٦٢، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ١١٩.

(٥) وذكر أبو ذر الخشني في الإملاء المختصر ١/ ٨٨ أن الحِلال - بكسر الحاء - جمع حِلَّة، وهي جماعة البيوت. وقال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٠: الحلال في هذا البيت: القوم الحلولُ في المكان، والحلال أيضاً: متاع البيت، وجائز أن يستعيره ههنا.

يـا رَبِّ لا أرجُـو لَـهـمْ سِـواكـا يـا ربِّ فـامـنـعْ مـنـهـمُ حِـمـاكـا
إنَّ عـدوَّ الـبـيـتِ مَـن عـاداكـا إنَّـهـمُ لـن يَـقْـهَـروا قُـوَاكـا[1]

وقال عكرمةُ بن عامر بنِ هاشم بنِ عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:

لاهُـمَّ أخْـزِ الأسـودَ بـن مـقـصـود الآخِـذَ الـهَـجْـمَـةَ فـيـهـا الـتَّـقْـلِـيـدْ
بـيـن حـراءٍ وثَـبِـيـرٍ فـالـبِـيـدْ يـحـبـسـهـا وهـي أولاتُ الـتَّـطْـريـدْ
فـضَـمَّـهـا إلـى طَـمـاطِـمٍ سُـودْ قَـدْ أَجْـمَـعُـوا أَلَّا يـكـون مَـعْـبُـودْ
ويـهـدمـوا الـبـيـتَ الـحـرامَ الـمَـعـمُـودْ والـمـرْوَتَـيـنِ والْـمَـشَـاعـرَ الـسُّـودْ
أَخْـفِـرْه يـا ربِّ وأنـت مـحـمـودْ[2]

قال ابن إسحاق: ثم أَرسل عبد المطلب حَلْقةَ بابِ الكعبة، ثم انطلق هو ومَن معه من قريش إلى شَعَف الجبال، فتحرَّزوا فيها ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكةَ إذا دخلها. فلمَّا أصبح أبرهةُ تهيَّأ لدخول مكةَ، وهيَّأ فيلَه، وعبَّأ جيشه، وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهةُ مُجْمِعٌ لهدم البيت، ثم الانصرافِ إلى اليمن. فلمَّا وجَّهوا الفيلَ إلى مكة، أقبل نُفَيْل بن حبيب، حتى قام إلى جَنْبِ الفيل، ثم أخذ بأُذنه فقال له: ابْرُكْ محمودُ، وارجع راشداً من حيث جئتَ، فإنَّك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أُذُنَه، فبرك الفيل[3]. وخرج نُفيل بن حبيب يشتدُّ، حتى أَصْعدَ في الجبل. وضربوا الفيلَ

(١) السير والمغازي لابن إسحاق ص ٦٤ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٤١ ، والبيت الأخير فيه برواية: امنعهم أن يخربوا قراكا.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٩ ، وهي في سيرة ابن هشام ١/ ٥١ دون قوله: قد أجمعوا... السود.
الهجمة: القطعة من الإبل، قيل: ما بين الخمسين إلى الستين. وقوله: فيها التقليد، أي: في أعناقها قلائد. وحراء وثبير جبلان بمكة. والبيد جمع بيداء، وهي القفر. والطماطم: الأعاجم، واحدهم: طُمْطُمان. وقوله: أخفره، أي: انقض عهده، فلا تؤمِّنه. ينظر الروض الأنف ١/ ٧١ ، والإملاء المختصر ١/ ٨٩ .

(٣) قال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧١ : قوله: فبرك الفيل، فيه نظر؛ لأن الفيل لا يبرك، فيحتمل أن يكون بروكه: سقوطه إلى الأرض لمَا جاءه من أمر الله سبحانه، ويحتمل أن يكون فَعَلَ فِعْلَ البارك الذي يلزم موضعه ولا يبرح، فعبَّر بالبروك عن ذلك.

ليقومَ فأبى، فضربوا في رأسه بالطَّبرزِين[١] ليقوم فأَبى؛ فأدخلوا محاجِنَ[٢] لهم في مرَاقِّه فبَزَغوه بها[٣] ليقوم، فأبى، فوجَّهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يُهَروِلُ، ووجَّهوه إلى الشام ففَعَلَ مثل ذلك، ووجَّهوه إلى المَشْرِق ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر، أمثالَ الخطاطيفِ والبَلَسان[٤]، مع كلِّ طائرٍ منها ثلاثةُ أحجارٍ يحملها: حجرٌ في مِنقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحِمَّصِ والعَدَس، لا تصيبُ منهم أحداً إلَّا هلك، وليس كلَّهم أصابتْ. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريقَ التي جاؤوا منها، ويسألون عن نُفيل بن حبيب ليدلَّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل بنُ حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نِقْمَتِه:

أيــن الــمَــفَــرُّ والإلــهُ الــطَّــالــبُ والأَشْـرَمُ الـمـغـلـوبُ لـيس الـغـالـبُ

وقال أيضاً:

حَـمِـدْتُ الـلـه إذ أَبْـصَـرْتُ طَـيْـراً وخِـفْـتُ حِـجـارَةً تُـلْـقَـى عـلـيـنـا

فـكـلُّ الـقـومِ يـسـألُ عـن نُـفَـيـلٍ كَـأَنَّ عَـلَـيَّ لِـلْـحُـبْـشـان دَيْـنـا

فخرجوا يتساقطون بكلِّ طريق، ويهلِكون على كلِّ سَهْل[٥]، وأُصيب أبرهةُ في جسده، وخرجوا به معهم يسقطُ أنملةً أنملةً، كلَّما سقطت منه أنملةٌ أَتْبَعتْها منه مِدَّةٌ تمثُّ قيحاً ودمًا[٦]؛ حتى قدموا به صنعاءَ وهو مثلُ فرخ الطائر، فما مات حتى انْصَدَع

(١) آلةٌ مُعَقَّفةٌ من حديد. الإملاء المختصر ١/ ٨٩.

(٢) جمع مِحْجَن، وهي عصاً معوجَّةٌ، وقد يجعل في طرفها حديد. الإملاء المختصر ١/ ٨٩.

(٣) أي: شرطوه بالحديد الذي في تلك المحاجن. وقوله: في مراقِّه، يعني في أسفل بطنه. الإملاء المختصر ١/ ٨٩.

(٤) ضَرْبان من الطير. الإملاء المختصر ١/ ٨٩ - ٩٠.

(٥) في سيرة ابن هشام وتفسير الطبري: منهل، ووقع في السيرة: ويهلكون بكل مهلك على كل منهل. قال أبو ذر الخشني في الإملاء المختصر ص ٩٠: المنهل موضع ورود الماء، وجمعه مناهل.

(٦) قوله: تمث، أي: تسيل، وقيل: ترشح. الإملاء المختصر ١/ ٩٠. وقال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٣: تمُث وتمِث بالضم والكسر، فعلى رواية الضم يكون الفعل متعدياً، ونصب قيحاً على المفعول. وعلى رواية الكسر يكون غير متعدٍّ، ونصب قيحاً على التمييز في قول أكثرهم.

صدرُه عن قلبه، فيما يزعمون.

وقال الكلبيُّ ومقاتل بنُ سليمان ـ يزيدُ أحدُهما وينقص ـ: سببُ الفيلِ ما رُوي أنَّ فِتْيةً من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشيِّ، فنزلوا على ساحل البحر إلى بِيعةٍ للنصارى، تسمِّيها النصارى الهَيْكل، فأَوْقَدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارْتَحَلوا، فهبَّتْ ريحٌ عاصفٌ على النار فأضرمت[١] البِيعةَ ناراً فاحْتَرقتْ، فأتى الصَّرِيخُ إلى النجاشيِّ فأخبره، فاستشاط غضباً. فأتاه أبرهةُ بنُ الصَّبَّاح وحُجْر بن شراحيل[٢] وأبو يَكْسوم الكِنْديون؛ وضَمِنوا له إحراقَ الكعبةِ وسَبْيَ مكة. وكان النجاشيُّ هو الملك، وأبرهةُ صاحبُ الجيش، وأبو يكسوم نديمُ الملك، وقيل: وزيره[٣]، وحُجْر بن شراحيل من قوَّاده. وقال مجاهد: أبو يكسوم هو أبرهةُ بن الصباح. فساروا ومعهم الفيل. قال الأكثرون: هو فيلٌ واحد. وقال الضحاك: هي ثمانيةُ فِيَلَة. ونزلوا بذي المَجاز[٤]، واستاقوا سَرْحَ مكةَ، وفيها إبلُ عبدِ المطلب. وأتى الراعي نذيراً، فصعد الصفا وصاح: واصباحاه! ثم أخبر الناس بمجيء الجيشِ والفيل. فخرج عبد المطلب، وتوجَّه إلى أبرهة، وسأله في إبله.

واختُلِف في النجاشيِّ، هل كان معهم؟ فقال قوم: كان معهم. وقال الأكثرون: لم يكن معهم.

وبصُر[٥] أهلُ مكةَ بالطير قد أقبلت من ناحية البحر، فقال عبد المطلب: إنَّ هذه الطيرَ غريبةٌ بأرضنا، وما هي بنَجْديةٍ ولا تِهاميةٍ ولا حجازية، وإنَّها أشباهُ

---

(١) في (ظ): فاضطرمت.

(٢) في (م): شرحبيل، وفي (د): سرجيل، في الموضعين.

(٣) في النسخ: وزير، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٤٠، والكلام منه.

(٤) موضع سوق على ناحية كبكب، على فرسخ من عرفة، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام. معجم البلدان ٥/ ٥٥.

(٥) في (د) و(م): ونظر.

اليَعاسيب[١]. وكان في مناقيرها وأرجلها حجارةٌ، فلمَّا أطلَّت[٢] على القوم ألقتها عليهم، حتى هلكوا. قال عطاء بن أبي رباح: جاءت الطير عشيةً، فباتت، ثم صبَّحَتْهم بالغَداةِ فرمَتْهم[٣].

وقال الكلبيُّ: في مناقيرها حصًى كحصى الخَذْفِ، أمامَ كلِّ فرقةٍ طائرٌ يقودُها، أحمرُ المِنقار، أسودُ الرأس، طويلُ العنق. فلمَّا جاءت عَسْكَرَ القومِ وتَوافَتْ، أهالَتْ ما في مناقيرها على مَن تحتَها، مكتوبٌ على كلِّ حجرٍ اسمُ صاحبِه المقتولِ به. وقيل: كان على كلِّ حجر مكتوبٌ: مَن أطاع الله نجا، ومَن عصاه غَوَى. ثم انصاعت راجعةً من حيث جاءت.

وقال العَوفيُّ: سألتُ عنها أبا سعيد الخُدْرِيَّ، فقال: حمامُ مكةَ منها[٤].

وقيل: كان يقع الحجرُ على بيضة أحدِهم فيخرقها ويقع في دِماغه، ويخرقُ الفيلَ والدابَّة. ويغيب الحجر في الأرض من شدَّة وَقْعِه.

وكان أصحابُ الفيل ستِّين ألفاً، لم يرجع منهم أحدٌ إلَّا أميرُهم، رجع ومعه شِرذمةٌ لطيفة. فلمَّا أَخبَروا بما رَأَوْا هَلَكوا.

وقال الواقديُّ: أبرهةُ جدُّ النجاشيِّ الذي كان في زمان رسولِ الله ﷺ[٥].

وأبرهةُ هو الأشرمُ، سمِّي بذلك لأنَّه تَفَاتَنَ مع أرياط، حتى تَزاحَفا، ثم اتَّفقا على أن يلتقيا بشَخْصَيْهما، فَمَن غَلَب فله الأمرُ. فتبارزا، وكان أَرْياطُ جسيماً عظيماً، في يده حربةٌ، وأبرهةُ قصيراً حادِراً[٦]، حليماً ذا دينٍ في النصرانية، ومع أبرهةَ وزيرٌ

(١) اليعسوب: أمير النحل. القاموس (عسب).

(٢) في (د): أقبلت.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٠ - ٣٤١.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٤١، والكشاف ٤/ ٢٨٦.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤١، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٤٤٩ وزاد: وآمن به.

(٦) الحادر: السمين. اللسان (حدر).

له يقال له: عتودة، فلمَّا دَنَوْا ضرب أرياط بحربته رأسَ أبرهة، فوقعت على جبينه، فشَرمَتْ عينَه وأنفه وجبِينه وشفته؛ فلذلك سُمِّي الأشرم. وحمل عتودةُ على أرياط فقتله. فاجتمعت الحبشةُ لأبرهة، فغضب النجاشيُّ، وحلف ليَجُزَّنَّ ناصيةَ أبرهةَ، ويَطَأنَّ بلادَه. فجزَّ أبرهةُ ناصيته، وملأ مِزودًا من تراب أرضه، وبعث بهما إلى النجاشيِّ، وقال: إنَّما كان عبدَك، وأنا عبدُك، وأنا أَقْوَمُ بأمر الحبشة، وقد جززتُ ناصيتي، وبعثتُ إليك بترابِ أرضي لتطأه وتبرَّ في يمينك، فرضي عنه النجاشيّ[١]. ثم بنى أبرهةُ كنيسةً بصنعاء ليَصْرِفَ إليها حجَّ العرب؛ على ما تقدَّم.

الرابعة: قال مقاتل: كان عامُ الفيلِ قبلَ مولدِ النبيِّ ﷺ بأربعين سنةً. وقال الكلبيُّ وعُبيد بن عمير: كان قبل مولدِ النبيِّ ﷺ بثلاثٍ وعشرين سنة[٢]. والصحيحُ ما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «وُلدتُ عامَ الفِيلِ». وروي عنه أنه قال: «يومَ الفِيل». حكاه الماوَرْدِيُّ في التفسير له[٣]. وقال في كتاب «أعلام النبوّة[٤]»: ولِد رسولُ الله ﷺ يومَ الاثنين الثاني عَشَر من ربيع الأوّل، وكان بعد الفيلِ بخمسين يومًا. ووافق من شهورِ الروم العشرين من أشباط[٥]، في السنة الثانية عَشْرَة من ملكِ هُرْمُز بن أنوشروان. قال: وحكى أبو جعفر الطبريُّ[٦] أنَّ مولد النبيِّ ﷺ كان لاثنتين وأربعين

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤١ - ٤٢ ، وعرائس المجالس ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٢) عرائس المجالس ص ٤٤٩ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٨ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٣٨ ، وأخرج الرواية الأولى البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٧٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: ولد النبي ﷺ عام الفيل. وكذا أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ١٠١ إلا أن فيه: يوم الفيل، وهي الرواية الثانية، وزاد ابن سعد: يعني عام الفيل. وقد ثبتت ولادة النبي ﷺ في عام الفيل عن غير واحد من الصحابة وغيرهم، ينظر طبقات ابن سعد ١/ ١٠٠ - ١٠١ ، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٧٥ - ٧٩ . وقال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٦/ ٢٢٥ : لا خلاف بين العلماء بالسير والآثار أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل.

(٤) ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٥) في أعلام النبوة: شباط، وكلاهما صواب، وكذلك سُباط بالسين. ينظر التاج (سبط)، وصبح الأعشى ٢/ ٣٩٢ .

(٦) في تاريخه ٢/ ١٥٤ .

سنةً من ملك أنوشروان.

وقد قيل: إنَّه عليه الصلاة والسلام حملتْ به أمُّه آمنةُ في يوم عاشوراءَ من المحرَّم، وولد يومَ الاثنين لاثنتي عَشْرةَ ليلةً خَلَتْ من شهر رمضان[١]، فكانت مدَّةُ حملِه ثمانيةَ أشهرٍ كَمَلاً ويومين من التاسع.

وقيل: إنَّه ولد يومَ عاشوراءَ من شهر المحرم؛ حكاه ابن شاهين أبو حفص[٢]، في «فضائلِ يومِ عاشوراءَ» له.

ابن العربيِّ[٣]: قال ابن وهب عن مالك: وُلد رسولُ الله ﷺ عامَ الفيل، وقال قيس بن مَخْرَمَةَ: ولدتُ أنا ورسولُ الله ﷺ عامَ الفيل[٤]. وقد روى الناس عن مالك أنه قال: من مروءة الرجل ألَّا يُخْبِر بسنِّه؛ لأنَّه إنْ كان صغيرًا استَحْقَروه وإنْ كان كبيراً استَهْرَموه. وهذا قولٌ ضعيف؛ لأنَّ مالكاً لا يُخبِرُ بسنِّ رسولِ الله ﷺ ويكتم سِنَّه، وهو من أعظم العلماءِ قدوةً به. فلا بأسَ بأن يخبر الرجلُ بسنِّه كان كبيراً أو صغيراً.

وقال عبد الملك بن مروان لقَبَاث بنِ أَشْيَم[٥]: أنت أكبرُ أم النبيُّ ﷺ؟ فقال: النبيُّ ﷺ أكبرُ منِّي، وأنا أسنُّ منه؛ وُلد النبيُّ ﷺ عامَ الفيل، وأنا أدركتُ سائسَه وقائدَه أَعْمَيَيْن مُقْعَدين يستطعمان الناس[٦].

وقيل لبعض القضاة: كم سنُّك؟ قال: سنُّ عَتَّاب بنِ أَسيد حين ولَّاه النبيُّ ﷺ

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٣/٦٦ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) هو عمر بن أحمد بن عثمان البغدادي الواعظ، صاحب التفسير الكبير، توفي سنة (٣٨٥هـ). السير ١٦/٤٣١.

(٣) في أحكام القرآن ٤/١٩٦٨.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٨٩١)، والترمذي (٣٦١٩) وقال: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق.

(٥) في النسخ: لعتاب بن أسيد، والمثبت من المصادر ـ على ما يأتي ـ وهو الصواب.

(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والثاني (٩٢٧)، والطبراني في الكبير ١٩/(٧٥)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٨٤)، والبيهقي في الدلائل ١/٧٨، ووقع في هذه المصادر: وتنبئ على رأس أربعين من الفيل، بدل قوله: وأنا أدركت سائسه...، وقد روي هذا عن عائشة رضي الله عنها كما سيرد.

مكةَ. وكان سنُّه يومئذٍ دون العشرين[١].

الخامسة: قال علماؤنا: كانت قصةُ الفيلِ فيما بعدُ من معجزات النبيِّ ﷺ، وإن كانت قبلَه وقبل التحدِّي؛ لأنَّها كانت توكيداً لأمره، وتمهيداً لشأنه. ولمَّا تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة، كان بمكةَ عددٌ كثيرٌ ممن شهد تلك الوَقْعةَ؛ ولهذا قال: «ألم تر»، ولم يكن بمكةَ أحدٌ إلَّا وقد رأى قائدَ الفيلِ وسائقَه أعميين يتكفَّفان الناس. وقالت عائشةُ رضي الله عنها مع حَداثةِ سنِّها: لقد رأيتُ قائدَ الفيلِ وسائقَه أعميَيْن يستطعمان الناس[٢].

وقال أبو صالح: رأيتُ في بيتِ أمِّ هانئ بنتِ أبي طالب نحوًا من قفيزين من تلك الحجارة، سوداً مخططةً بحُمْرةٍ[٣].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في إبطالٍ وتضييعٍ؛ لأنَّهم أرادوا أن يكيدوا قُريشاً بالقتل والسبي، والبيتَ بالتخريبِ والهَدْمِ. فحُكي عن عبد المطلب أنَّه بعث ابنَه عبدَ الله على فرسٍ له، ينظر ما لَقُوا من تلك الطير، فإذا القومُ مُشَدَّخون[٤] جميعاً، فرجع يركضُ فرسه، كاشفاً عن فخذه، فلمَّا رأى ذلك أبوه قال: إنَّ ابني هذا أفرسُ العرب، وما كَشَفَ عن فخذه إلَّا بشيراً أو نذيراً. فلمَّا دنا من ناديهم بحيث يُسْمِعُهم الصوتَ، قالوا: ما وراءك؟ قال: هَلَكوا جميعاً. فخرج عبد المطلب وأصحابُه، فأخذوا أموالَهم. وكانت أموالُ بني عبدِ المطَّلبِ منها، وبها تَكامَلَتْ رياسةُ عبدِ المطَّلب؛ لأنَّه احْتَمَل ما شاء من صفراءَ وبيضاء، ثم خرج أهلُ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٦٨.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السير والمغازي ص ٦٥، والبزار (١١٧٦ ـ كشف). وهو في سيرة ابن هشام ١/٥٧. ووقع في هذه المصادر: وسائسه، بدل: وسائقه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/٣٤٣، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٩٦ لابن مردويه وأبي نعيم.

(٤) في النسخ: مشدخين، والمثبت من المصادر، على ما يأتي.

مكة بعده ونهبوا[١].

وقيل: إنَّ عبد المطلب حَفَر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر، ثم قال لأبي مسعودٍ الثقفيِّ ـ وكان خليلاً لعبد المطلب ـ: اختَرْ أيَّهما شئت. ثم أصاب الناسُ من أموالهم حتى ضاقوا ذرعاً[٢]، فقال عبد المطلب عند ذلك:

أنتَ مَنَعْتَ الحُبْشَ والأَفْيالا وقد رَعَوا بمكةَ الأَجْبالا
وقد خَشِينا منهمُ القتالا وكلَّ أمرٍ لهمُ مِعضَالا
شُكْرًا وحَمْدًا لك ذا الجلالا[٣]

قال ابن إسحاق: ولمَّا ردَّ الله الحَبَشةَ عن مكةَ عَظَّمت العرب قريشاً، وقالوا: [هم] أهلُ الله، قاتَلَ عنهم، وكفاهم مؤونةَ عدوِّهم[٤]. وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم في قصة أصحاب الفيل:

أنت الجليلُ ربَّنا لم تُدْنِسِ أنت حَبَسْتَ الفيلَ بالمُغَمَّسِ
من بعد ما هَمَّ بشرٌّ مُبْلِس حَبَسْتَه في هيئة المُكَرْكَسِ
وما لهم من فَرَجٍ ومَنفَسِ[٥]

والمكَرْكَس: المنكوس المطروح.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾

قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلُها[٦].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٤١ ، وهو قطعة من خبر طويل في قصة الفيل أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٨٦) عن عثمان بن المغيرة.

(٢) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٤٤٨ ، والبغوي ٤/ ٥٢٨ عن مقاتل مطولاً.

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم (٨٦)، والنكت والعيون ٦/ ٣٤٢ . ووقع في (د) و(ز) و(ظ) والدلائل: الجيش، بدل: الحبش.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٧٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤٠ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ .

وروى جويبِر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّها طيرٌ بين السماءِ والأرضِ تُعَشِّشُ وتُفَرِّخ»[١].

وعن ابن عباس: كان لها خراطيمُ كخراطيم الطير، وأَكُفٌّ كأَكُفِّ الكلاب[٢].

وقال عِكرمةُ: كانت طيراً خُضْرًا، خرجت من البحر، لها رؤوسٌ كرؤوسِ السِّباع، ولم تُرَ قبلَ ذلك ولا بعده[٣]. وقالت عائشةُ رضي الله عنها: هي أَشْبهُ شيءٍ بالخطاطيف[٤]. وقيل: بل كانت أشباهَ الوطاويط، حمراءَ وسوداء[٥].

وعن سعيد بن جبير أيضًا: هي طيرٌ خُضْرٌ لها مَناقيرُ صُفْرٌ[٦]. وقيل: كانت بِيضًا.

وقال محمد بن كعب: هي طيرٌ سودٌ بَحْريَّةٌ، في مناقيرها وأظفارِها الحجارة[٧]. وقيل: إنَّها العنقاءُ المُغْرِبُ التي تُضْرَبُ بها الأمثالُ؛ قاله عِكرمة[٨].

«أبابِيل» أي: مجتمعة. وقيل: مُتتابعة، بعضُها في إثْرِ بعضٍ؛ قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل: مختلفة متفرِّقة، تَجيءُ من كلِّ ناحيةٍ، من هاهنا وهاهنا؛ قاله ابن مسعود وابن زيد والأخفش[٩].

قال النحاس: وهذه الأقوالُ مُتَّفِقةٌ، وحقيقةُ المعنى: أنَّها جماعاتٌ عِظامٌ؛

---

(١) المصدر السابق، وجويبر ضعيف جدًّا، كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السير والمغازي ص ٦٥ ، والطبري ٢٤/ ٦٣٠ و٦٣١ .

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ١/ ١٢٣ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣١ دون قوله: لم تر قبل ذلك ولا بعده.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ .

(٥) قطعة من خبر طويل في قصة الفيل أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٨٦).

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣٢ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣١ عن عبيد بن عمير.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ ، وهو بنحوه عن عكرمة في تفسير مجاهد ٢/ ٧٨٤ . والعنقاء المُغرب: طائر عظيم معروفُ الاسم مجهول الجسم لم يره أحد. النهاية (عنق).

(٩) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ ، وأخرجها عدا قول الأخفش الطبري ٢٤/ ٦٢٨ - ٦٣٠ .

يقال: فلانٌ يؤبِّلُ على فلان، أي: يعظمُ عليه ويُكْثِر، وهو مشتقٌّ من الإبل.

واختلف في واحدِ «أبابيل»؛ فقال الجوهريُّ: قال الأخفش: يقال: جاءت إبلُكَ أبابيل، أي: فِرقًا، وطيرٌ أبابيل. قال: وهذا يجيءُ في معنى التكثير، وهو من الجمع الذي لا واحدَ له. وقال بعضُهم: واحدُه إبَّوْل، مثل: عِجَّوْل. وقال بعضهم[١]: إبِّيل مثل سِكِّين. قال: ولم أَجِدِ العربَ تعرِفُ له واحدًا.

في غير «الصحاح»: وقيل في واحدِه: إبَّال. وقال رؤبةُ بن العجَّاج في الجمع:

ولعبتْ طيرٌ بِهِمْ أَبابيلْ فصُيِّروا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ[٢]

وقال الأعشى:

طَريقٌ وجَبَّارٌ رِواءٌ أُصولُهُ عليه أبابيلٌ مِن الطَّيْرِ تَنْعَبُ[٣]

وقال آخر:

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلتي إذ سالتِ الأرضُ بالجُرْدِ الأَبابيلِ[٤]

وقال آخر:

تَراهُمْ إلى الدَّاعي سِرَاعًا كأنَّهُمْ أبابيلُ طَيرٍ تَحْتَ دَجْنٍ مُسَجَّنِ[٥]

قال الفرَّاء: لا واحدَ له مِن لَفْظِه، وزعم الرُّؤاسيُّ [لي][٦] ـ وكان ثقةً ـ أنه سمع

---

(١) بعدها في (م): وهو المبرد، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في الصحاح (أبل)، وذكره عن المبرد النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٩٢.

(٢) سيأتي قريباً.

(٣) ديوان الأعشى ص ٢٥١. قوله: وجبار، الجبار هو النخلة الطويلة الفتية، وتضم. القاموس (جبر). وقال شارح الديوان: ونخلك الطويل المرتفع الضخمُ الجذوعِ، تحط عليه من الطيور أسراب، تتجاوب أصواتها بالتنعاب.

(٤) سلف ٥/ ٤٢٠.

(٥) في (د) و(ي) و(م): مسخن، والمثبت من (د) و(ظ) وفتح القدير ٥/ ٤٩٦. وهو في مجمع البيان ٣٠/ ٢٣٨ برواية: تحت داجن مدَجَّن، ونسبه الطبرسي لامرئ القيس، ولم نقف عليه في ديوانه. قوله: دجن، الدَّجْن هو إلباس الغيم السماء، والمطرُ الكثير. الصحاح (دجن).

(٦) ما بين حاصرتين زيادة في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٢، والرؤاسي هو أبو جعفر الكوفي النحوي أستاذ الكسائي. إنباه الرواة ٤/ ٩٩.

في واحدها «إبَّالة» مشدَّدة. وحكى الفرَّاء: «إبَالة» مخفَّفًا. قال: وسمعتُ بعضَ العرب يقول: ضِغْثٌ علَى إبَّالة. يريد: خِصْباً على خِصْبٍ[١]. قال: ولو قال قائل: إيبالة، كان صواباً، مثل: دينار ودنانير.

وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل: الأبابيل: مأخوذٌ من الإبل المؤبَّلة، وهي الأقاطيع[٢].

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾

في «الصحاح»: «حجارة من سِجِّيل» قالوا: حجارة من طين، طُبِخَتْ بنارِ جهنَّمَ، مكتوب فيها أسماءُ القوم؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣][٣].

وقال عبد الرحمن ابن أَبْزَى: «مِن سِجِّيل»: من السماء، وهي الحجارةُ التي نزلت على قومِ لوط[٤].

وقيل: من الجحيم، وهي «سِجِّين» ثم أُبْدِلت اللامُ نونًا، كما قالوا في أَصَيْلان: أُصيلال. قال ابن مقبِل:

ضَرْباً تَواصَتْ به الأبطالُ سِجِّينَا[٥]

---

(١) كذا شرحه الفراء. وذكر أبو عبيد في الأمثال ص ٢٦٤ عن الأصمعي قال: الإبَّالة: الحزمة من الحطب، والضغث: الجرزة التي فوقها، يقول: هي بلية على أخرى كانت قبلها. ومثله في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤١٩ ، وقال الميداني: وبعضهم يقول: إبَالة مخففاً. وفي جمهرة الأمثال ٢/ ٦ ، والمستقصى ٢/ ١٤٨ : يضرب لمن حمَّلك مكروهاً، ثم زادك عليه.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٤٣ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٦٢٩ . والأقاطيع جمع على غير قياس للقطيع، وهو الطائفة من الغنم والنعم. القاموس (قطع).

(٣) الصحاح (سجل).

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣٥ إلا أنه فيه عن عبد الرحمن بن زيد، وزاد فيه: والسماء الدنيا اسمها سجيل. قال الطبري: وهذا القول لا نعرف لصحته وجهاً في خبر ولا نقل ولا لغة.

(٥) وصدره: ورجلة يضربون البَيْضَ عن عُرُضٍ. وهو في ديوان ابن مقبل ص ٣٣٣ ، وسلف ١١/ ١٨٨ .

وإنَّما هو: سِجِّيلاً. وقال الزجاج: «مِن سِجِّيل» أي: مما كُتب عليهم أن يُعَذَّبوا به، مشتقٌّ من السِّجِلِّ[١]. وقد مضى القولُ في سِجِّيل في «هود» مستوفًى[٢].

قال عِكرمةُ: كانت ترميهم بحجارةٍ معها، فإذا أصاب أحدَهم حجرٌ منها خرج به الجُدَرِيُّ، لم يُر قبلَ ذلك اليوم[٣]. وكان الحجر كالحِمِّصة وفوق العدسة.

وقال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِط جِلْدُه، فكان ذلك أوَّلَ الجُدرِيّ[٤].

وقراءةُ العامَّةِ: «تَرْمِيهِمْ» بالتاء؛ لتأنيثِ جماعةِ الطير. وقرأ الأعرج وطلحة: «يَرْمِيهم» بالياء[٥]، أي: يرميهم الله، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]. ويجوزُ أن يكون راجعًا إلى الطير؛ لخلوِّها من علامات التأنيث، ولأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

أي: جعل الله أصحابَ الفيلِ كورقِ الزرعِ إذا أَكَلَتْه الدوابُّ فرَمَتْ به من أسفل. شبَّه تَقَطُّعَ أوصالِهم بتَفرُّقِ أجزائه. رُوي معناه عن ابن زيد وغيرِه[٦]. وقد مضى القولُ في العَصْف في سورة الرحمن[٧]. وممَّا يدلُّ على أنَّه ورقُ الزَّرعِ قولُ علقمةَ:

تَسْقي مَذانِبَ قدْ مالتْ عَصِيفَتُها ... حُدورُها من أَتيِّ الماءِ مَطْمُومُ[٨]

---

(١) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧١ . وقال الزجاج ٥/ ٣٦٤ عند شرح هذه الآية: من سجيل، أي: من شديدِ عذابه، والعرب إذا وصفت المكروه بالسجيل كأنها تعني به الشدة.

(٢) ١١/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣٣ ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٣٣ ، والبيهقي في الدلائل ١/ ١٢٣ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٦ .

(٥) القراءات الشاذة ص ١٨٠ .

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٤٤ - ٦٤٥ .

(٧) عند تفسير الآية (١٢) منها.

(٨) ديوان علقمة ص ٥٥ . وفيه: قد زالت عصيفتها...، قال الأعلم الشنتمري شارح الديوان: قوله: =

وقال رؤبة بن العجاج:

ومَسَّهُمْ ما مَسَّ أصْحابَ الفيلْ تَرْمِيهِمُ حِجارةٌ مِنْ سِجِّيلْ
ولَعِبتْ طَيرٌ بهِمْ أبابيلْ فَصُيِّروا مِثلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ[1]

العَصْف: جمع، واحدتُه: عَصْفة وعُصافة وعَصِيفة. وأدخل الكافَ في «كَعَصْف» للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١][2].

ومعنى «مأكول»: مأكولٌ حَبُّه. كما يقال: فلان حسن، أي: حَسَنٌ وجهُه.

وقال ابن عباس: «فجعلهم كعَصْفٍ مأكول» إنَّ المراد به قشرُ البرِّ، يعني الغِلافَ الذي تكون فيه حبةُ القمح[3]. ويُروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيُخرِجُ كلَّ ما في جوفه، فيبقى كقِشْرِ الحنطةِ إذا خرجت منه الحبة.

وقال ابن مسعود: لمَّا رمت الطيرُ بالحجارة، بعث الله ريحاً فضربت الحجارةَ فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحدٍ إلَّا هلك، ولم يسلَم منهم إلَّا رجلٌ من كِندة، فقال:

فَإنَّكِ لَوْ رأيتِ ولم تَريهِ[4] لدى[5] جنبِ المُغَمّسِ ما لَقِينا
خَشِيتُ اللهَ إذْ قد بَثَّ طيراً وظِلَّ سحابةٍ مَرَّتْ علينا

= قد زالت عصيفتها، أي: تفرق ورقُها، وانفتحت وتباينت من الريِّ. والعصيفة: الورق. والمذانب: مسايل الماء. وحدورها: ما انحدر منها واطمأن. والأَتِيُّ: الجدول. والمطموم: المملوء بالماء.

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥ ، والخزانة ١٠/ ١٨٩ ، والأبيات في ملحقات ديوان رؤبة ص ١٨١ ، والبيت الأخير نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٤٠٨ لحميد الأرقط، وهو بلا نسبة في المقتضب ٤/ ١٤١ ، وسر صناعة الإعراب ١/ ٢٩٦ .

(٢) أي: أنه أكد الشَّبَه بزيادة الكاف، إلا أنه في الآية أدخل الحرف على الاسم، وفي البيت أدخل الاسم وهو «مثل» على الحرف وهو الكاف، والتقدير: فصُيِّروا مثلَ مثلِ عصفٍ مأكول. ينظر سر صناعة الإعراب ١/ ٣٩٦ ، وشرح شواهد الكتاب للشنتمري ص ٢٣٧ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٤٥ بنحوه.

(٤) في النسخ: ولو ترانا، بدل: ولم تريه، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٤٣ ، والكلام منه.

(٥) في النسخ الخطية: لذي، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

وبـاتـتْ كـلُّـهـا تـدعـو بِـحَـقٍّ كـأنَّ لـهـا عـلـى الـحُـبْـشـانِ دَيْـنَـا

ويُروى أنَّها لم تُصِبْهم كلَّهم، لكنَّها أصابت مَن شاء اللهُ منهم. وقد تقدَّم أنَّ أميرهم رجع وشِرْذمةٌ لطيفةٌ معه، فلمَّا أخبروا بما رَأَوْا هلكوا. فالله أعلم.

وقال ابن إسحاق[١]: لمَّا ردَّ الله الحبشةَ عن مكة، عَظَّمت العربُ قريشاً وقالوا: أَهلُ اللهِ، قاتَلَ عنهم، وكفاهم مؤونةَ عدوِّهم؛ فكان ذلك نعمةً من الله عليهم.

تفسير سورة «قريش»

مكيةٌ في قولِ الجمهور. ومدنِيةٌ في قولِ الضحاكِ والكلبيّ[٢]، وهي أربعُ آيات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾

قيل: إنَّ هذه السورةَ متَّصلةٌ بالتي قبلها في المعنى؛ يقول: أهلكتُ أصحابَ الفيلِ لإيلاف قريش؛ أي: لتأتَلفَ قريش، أو لتتَّفقَ قريش، أو لكي تأمَن قريشٌ فتُؤْلِف[٣] رحلتيها. وممن عدَّ السورتين واحدةً أبيّ بن كعب، ولا فَصْلَ بينهما في مُصْحَفِه[٤]. وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمامٌ لا يَفْصِلُ بينهما، ويقرؤهما معا.

وقال عمرو بن ميمون الأَوْدِيُّ: صلَّينا المغربَ خَلْفَ عمرَ بنِ الخطاب ﷺ؛ فقرأ في الأولى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ وفي الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[٥].

---

(١) سلف قوله ص٤٨٩ من هذا الجزء.

(٢) زاد المسير ٩/ ٢٣٨ .

(٣) يعني تَأْلَف؛ يقال: أَلِفَ يَأْلَفُ، وآلَفَ يؤْلِف، وسيأتي.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٨٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٥٢٩ .

(٥) سلف ص٣٦٧ من هذا الجزء. قال الرازي ٣٢/ ١٠٤ : أما قراءة عمر فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين. وأما القول أن أبيًّا لم يفصل بينهما فهو معارَضٌ بإطباق الكل على الفصل بينهما.